شبان هذا الجيل

حديث مع حضرة صاحب الدولة اسماعيل صدقى باشا

أقبل علىّ مشرق الوجه خفيف الحركة متجدد الشباب ، ترتسم على شفتيه الابتسامة التى حار الناس فى فهم معانيها إذ هى لا تتغير بل تبقى هى هى فى أعقد المواقف وفى أبهج الأوقات ، حتى لقد رأيتها تلازمه يوم أرادوا اغتيال حياته فى محطة القاهرة كما رأيتها تلازمه زفاف كريمته فى رمل الاسكندرية . أقبل علىّ وهو يحك احدى راحتيه بالأخرى ليدفئها قبل أن يمدها للسلام وابتدرنى قائلا :

" لو علمت أهمية العمل الذى قطعته الآن لأخلو إليك هذه الساعة لأدركت منزلة مجلة الشؤون الاجتماعية من نفسى . أنى أهنئ الوزارة بهذه المجلة الثمينة القيمة ، وأرجو أن تحمل هذه التهنئة الى معالى وزيركم " .

قلت : أشكر لدولتكم هذه المجاملة المشرفة .

فقاطعنى باشارة حاسمة وقال : لا والله ، فلست أريد مجرد المجاملة فالحقيقة هى أن مجلة الشؤون الاجتماعية جديرة بالمطالعة والتشجيع ، ويجب تأييدها وتعميم نشرها طالما حافظت على هذا المستوى من البحث والتحرير . بل لعلى اذهب الى أبعد من ذلك فأقول : إن هذه المجلة لو لم توجد لوجب ايجادها . فهى تفيد الأسرة والشبان المسئولين عن العامل والعلاج أجل فائدة ، وإنه ليسرنى أن أراها بين جميع الأيدى وفى جميع البيوت .

قلت : إن القائمين بأمر المجلة سيسرهم أن يسمعوا هـذا التقدير من رجل كدولتكم ولسوف أنقله اليهم كلمة كلمة .

ثم استند دولته الى ظهر مقعده الوثير وقال : والآن وأنا مطمئن الى أن الذى يحدثنى ليس صحافيا سياسيا ، تستطيع أن تسألنى ما تشاء .

قلت : إن من الأمور التى تعنى بها وزارة الشؤون الاجتماعية وتعالجها مجلتها أمور الشباب . ودولتكم قد خبرتم الشبان المصريين فى وظائف الحكومة وفى أعمال الشركات والمتاجر. فما أبرز عيوب هؤلاء الشبان وما أنجع الوسائل لعلاجها ؟ .

فتبسم الباشا واعترض قائلا : ولماذا تريد أن أبدأ بسرد عيوب شبابنا قبل أن اتحدث عن مزاياهم ومحاسنهم ؟ إن فى شبابنا المصريين فضائل يجب أن نمجدها ونشيد بها بقدر مايجب أن نتعهدها وننميها . ففيهم من دماثة الخلق ولين العريكة وحب المرح وقوة التحمل وسهولة التطبع والقدرة على المحاكاة شيء كثير . وهم لا تنقصهم روح السمو والوثوب ولا الكبرياء القومية التى تجعلهم يعتزون بقوميتهم ويحاولون أن يرفعوا هذه القومية الى مستوى جدير بأن يفخروا بها ويباهوا غيرهم من الشعوب .

نعم إن العراك الناشب بين الأحزاب السياسية فى مصر منذ عشرين سنة قد وضع أمام أعين شبان هذا الجيل بعض مثل سيئة وبعض قدوات غير صالحة أثرت الى حد ما فى اخلاق طائفة منهم ، اذ زعزعت فى نفوسهم شيئا من الإيمان بنزاهة الوطنية المصرية وبعثت فيهم اليأس من صلاح حال أمتهم وصرفت بعضهم عن العمل المنزه لوجه الوطن . وهذه بلا شك سحابة كدرة تغشى جو الشباب فى هذه الأيام ، ولكنها على كل حال مجرد سحابة ، وليس للسحاب استقرار ولا دوام .

"بعد ذلك اسمح لنفسى أن انتقل الى عيوب شبابنا فأقول إن من أبرزها كره الشباب المصرى للمسئوليات ونفوره من الأعمال التى تحمل تبعاتها وحده . فالموظف الشاب يتهرب من المسئولية بأن يحاول توزيعها على زملائه أو بأن يشرك فيها رؤساءه ويتمنى لو يتغطى دائما بالرئيس حتى فى التفاصيل التافهة التى لا تستوجب مشاورة هذا الرئيس . ومن ثم كان بطء الآلة الحكومية وطول الإجراءات التى تعطل مصالح الجمهور ، حتى لقد جرى مجرى الأمثال قول الناس " يوم الحكومة شهر " وهذه سمعة شائنة نود جميعا أن نعمل على إزالتها .

"واذا تحدثت عن الموظف الشاب فإنى اتحدث عنه بشيء من التحفظ ، ولا أقصد بقولى هذا نزاهة الموظف ولا شرفه ولا تعففه ، وإنما أقصد ذلك الشعور الداخلى الذى يجب أن يوحى إليه أنه خادم للجمهور وأنه يتقاضى أجرا على هذه الخدمة فيجب أن يؤديها على أحسن وجه ممكن وأنه مادام فى ديوانه فكل وقته مكرس للجمهور ، وأن اللحظات التى يقضيها فى مسامرة صديق أو فى مطالعة صحيفة أو فى التنقل بين المكاتب لزيارة الزملاء ، كل ذلك عبث بحق من حقوق الدولة عليه وتعطيل لمصالح يجب أن تنجز فى سرعة وفى دقة .

" هذا الشعور الداخلي الذى يجب أن يعتبره الموظف الشاب أول وأكبر رقيب عليه في عمله ، لا يزال فى حاجة الى التنمية والتعهد .

"لقد كنت رئيسا للحكومة وفى الوقت نفسه وزيرا لوزارتين ضخمتين وكنت أحمل بجانب ذلك كله اعباء أخرى باهظة ، وكان فى استطاعتى أن اتخفف من هذه الأعباء أو من بعضها ولكنى كنت اؤمن بأنى خادم للجمهور أمين على مصالحه فكنت لا أترفع عن قراءة العرائض التى ترفع الى وكنت أحيلها بخطى الى الوزير المختص وأرجو منه أن يتكلم معى بشأنها ، وكان ذلك يقتضى وأنا فى هذه السن أن أبدأ عملى فى الساعة السادسة من الصباح واستمر فيه حتى ساعة متأخرة من الليل، فهل يكثر على الموظف الشاب أن يفرغ نفسه لعمله الرسمى ست ساعات ؟ .

« وأعود الى عيوب شبان مصر فأقول إن من أبرزها أيضا أن ميلهم الى الأعمال التى تبعدهم عن المسئوليات قد أقعدهم عن حب الابتكار ، فهم يدورون دواما فى المدار الذى وضعوا فيه وبالكيفية التى رسمت لهم ، ولا يحبون أن يخرجوا منه الى حيث تتكشف لهم آفاق جديدة يصرفون فيها مواهبهم المجهولة ويستغلون ذكاءهم الدفين ، ولعل الركون الى الهدوء والراحة، وبغض التحرر من القيود التقليدية، والاعراض عن محاولة الابتكار والتجديد، هى فى مقدمة الأسباب التى تجعل الشاب المصرى أقل نجاحا فى الأعمال الحرة منه فى الوظائف الحكومية .

" وعلاج هذه الحالة لا يأتى بالطفرة وإنما يترك للزمن فهو خير مدرب وأفيد مدرس ، ولا شك أن المثل التى يضربها الأجانب المقيمون بيننا سيكون لها أثرها الفعال فى نفوس شبابنا وستكون قدوة حسنة يقتدون بها عندما تقفل فى وجوههم أبواب المناصب الحكومية وتضيق بهم مكاتب الشركات . إن أمام الشاب المصرى نضالا عنيفا فى الحياة وسوف تضطره طبيعة الأحوال الى أن يعتمد على نفسه فى حياته، وهذا الاعتماد الذى لاغنى عنه لذلك النضال سيصهر روح الشباب وعقليته ومداركه ومواهبه وسيجلو نفس الشباب لعيبه فيتبين ما فيها من مزايا وعيوب ، وإذا قلت أن للزمن عمله فلا انسى أن للتعليم المدرسى عمله أيضا فيما يجب من الكشف عن استعداد الشبان وحسن توجيههم . غير انى الاحظ مع الأسف الشديد أن المحاولات التى تبذل فى هذا السبيل ليست كافية وأن النظريات المجردة لا تزال تطغى فى معاهدنا العلمية على التوجيه العملى المفيد، وانى أعتمد على الزمن أيضا فى ترقية البيئة المنزلية التى يتربى فيها الشاب ، فان هذه البيئة على ما هى عليه الآن لا تبعث فيه روح الجد والاعتماد على النفس والرغبة فى الابتكار ومحاولة الخروج عن المدار الضيق الذى تنحصر فيه آمال الشبان ، وهو مناصب الحكومة ووظائف الشركات .

قلت "ولمناسبة ذكر الشركات ، ودولتكم أعرف من غيركم بأعمالها وما تتطلبه هذه الأعمال من مواهب وأخلاق ومؤاهلات ، هل ترون أن الشباب المصرى يستطيع وهو فى حالته الراهنة أن يعوض الشاب الأجنبي فيها ؟ ."

فاطرق دولته مليا وهز رأسه من أعلى الى أسفل ومن أسفل إلى أعلى فى حركة تنم على الشعور بخطورة السؤال ثم قال :

"نعم يستطيع أن يعوضه ولكن إلى حد ما . وأقول إلى حد ما ، لأنه ينبغى أن لا ننسى أن وراء هذه الشركات رؤوس أموال يجب أن تستثمر على خير الوجوه . فما يمكن أن يتغاضى عنه فى بعض الوظائف الحكومية لا يمكن أن يتغاضى عن مثله فى أعمال الشركات . إن المسئوليات فى مكاتب الشركات محددة تحديدا دقيقا والأعمال موزعة توزيعا عادلا . فأى نقص فى الكفاءة أو ضعف فى الخلق أو تقصير فى العمل لا يلبث أن يبدو واضحا للرؤساء ولا بد أن يتأثر به سير العمل . لذلك أنصح بأن نسلك فى موضوع إحلال المصريين محل الأجانب سلوكا حذرا وئيدا نراعى فيه مبلغ نضجنا وكفايتنا واستعدادنا وإلا أدى التسرع إلى ظهور شكاوى وطعون وانتقادات وأحكام لا نحبها . لقد سبقتنا حكومة تركيا إلى هذا الإجراء وأبت الا أن تفرض شبان بلادها على الشركات الأجنبية فرضا وفى فترة قصيرة من الزمان . ولكن هذا العمل ، الذى لا شك فى أنه عمل قومى شريف ، قد أحدث هزة عنيفة فى دولاب الأعمال ما أظن إلا أنها تركت أثرها فيه . نعم إنى أود لو أغمض عينى وأفتحها فأرى المصريين يشغلون وظائف الأجانب فى الشركات ولكنى فى الوقت نفسه أرجو أن تتريث ونتمهل حتى نراهم يشغلونها بجدارة مشرفة واستحقاق لا شك فيه .

"أظن أننا لا نختلف فى أن محصول شبابنا من اللغات الأجنبية محصول ضئيل أو غير كاف ، وذلك راجع الى نقص برامج تعليم تلك اللغات فى مدارسنا والى ضعف الوسائل التى تعلم بها فيها ، فكيف نتصور أن حامل شهادة البكالوريا المصرية يستطيع أن يعمل بتفوق أو بنجاح فى شركة تسير أعمالها بلغة لم يتمكن منها ، وكيف يتسنى لهذا الشاب أن يتفهم التقارير المطولة والمكاتبات الفنية أو أن يستقرئ الإحصاءات الدقيقة ويرتب عليها النتائج الصحيحة بلغة لا يلم بها ؟

"ولقد لاحظت أيضا أن أبناء الشرقيين المتمصرين قد استطاعوا أن يعوضوا الأجانب فى مكاتب الشركات وفى المتاجر ونجحوا فى ذلك إلى حد لم يبلغه شبابنا المصريون . وذلك راجع بغير شك الى أن هؤلاء المتمصرين نشأوا فى بيئة كلها حد ونشاط وصبر وجلد واعتماد على النفس وعدم الاستخفاف بأمور الدنيا وشؤون الحياة ، والى أن آباءهم يعلمونهم العلم العملى ويدفعونهم إلى ميدان العمل بعد أن يلقنوهم أن نصيبهم من الحظ لا يمكن الا أن يكون معادلا

لما يبذلونه من الجهود . بخلاف أكثر أبنائنا الذين يعتمدون فى الغالب على أهلهم وأصدقاء أهلهم من ذوى النفوذ والجاه فيرتبون مستقبلهم على هـذه الاعتبارات ، حتى إذا تخطاهم الحظ أو قعد بهم التوفيق فقدوا كل أمل ولبثوا ينتظرون الفرصة التى قل ما تسنح .

"على أنه إذا دخل فى روع شبابنا وثبت فى وهمهم أن الأجانب قد سبقوهم إلى ميادين النجاح بمراحل يتعذر عليهم ادراكهم فيها ، فلا أقل من أن يتخذوا من الشرقيين المتمصرين قدوة لهم يحتذونها . وحسبهم أن يعلموا أن كل أصحاب تلك الأسماء المشهورة منهم لم ينشأوا أغنياء وانما نشأوا فقراء فأوصلهم الجد والاعتماد على النفس إلى الغنى الذى وصلوا اليه .

"لا يكفى أن تقتصر اعتمادنا على معسر يتنا لندعى الأحقية فى شغل وظائف الشركات . وانما ينبغى أن نسمو بمؤهلاتنا وأخلاقنا حتى نكون أهلا لها . وأرجو أن يغنينى هذا التلميح عن تفصيلات لا أريد الخوض فيها " .

* * *

قلت : نحن نسمى دولتكم " رجلا ناجحا " فهل تحدثوننى عن الصفات الخلقية والنفسية التى تساعد العلم والذكاء على ادراك النجاح ؟

فأجاب دولته :

"النجاح؟ ... ومن ذا الذى يستطيع أن يخضع النجاح للقواعد والقوانين؟ ومن ذا الذى يستطيع أن يسقط نصيب الحظ والصدفة والعوامل الخارجية فى النجاح ؟ ... ولكنى برغم هذا أقول لك أن لسائر الناس خمس حواس عرفت بأسمائها . وهنالك حاسة سادسة لا تتوافر الا فى بعض الموهوبين . وهذه الحاسة السادسة لا أعرف لها اسما ، ولك أن تسميها " حسن الوزن " أو " حسن التقدير " فاذا اجتمعت هذه الحاسة مع العلم والذكاء فى إنسان فهى تهديه إلى حسن وزن الأمور والى حسن تقديرها فيستطيع أن يتبين بها الممكن من المستحيل وحدود الإمكان وحدود الاستحالة فى جميع المشروعات التى تمر بخاطره .

" انك عند ما تريد أن تجتاز الشارع وترى سيارة مقبلة من اليمين أو من اليسار فإنك تقيس بهذه الحاسة المسافة التى تفصل بينك وبينها وترتب على هذا القياس إقدامك أو إحجامك ، كما أنك ترتب عليه ابطاءك فى الخطو أو إسراعك فيه ، وكثيرون من الناس يخطئون فى القياس فتصدمهم السيارة ، وكثيرون منهم يخطئون فى القياس أيضا فيتريثون أكثر مما يجب التريث فيضيعون الفرص .

" هـذه الحاسة الموجودة بالفطرة فى الانسان العـادى تنمو وتتوقد فى بعض الأذكياء والمتعلمين فتحمل الواحد من هؤلاء الموهوبين كلما خطر له مشروع ، على أن يقيس حدود قدرته وحدود عوامل النجاح التى بين يديه وحدود الظروف الملابسة لمشروعه وحدود الطوارئ غير المتوقعة التى قد تطرأ عليه ، فمتى أحسن الوزن والقياس لم يبق أمامه الا أن يقدم فينجح.

أما إذا لم ينجح فمعنى ذلك أنه اخطأ فى الوزن والقياس والتقدير .

" على أنها حاسة تتصادفها فى كثير من الناس ، وأظن أن فقدانها كان السبب الأهم فى فشل بعض عظماء التاريخ ولا يزال السبب الأهم أيضا فى إخفاق مشروعات كان المظنون أن يلازمها النجاح .

قلت : "إن حياة دولتكم حياة كلها جهاد ونضال ، ولا بد أنكم أخفقتم مرة فى مشروع خطير أو فشلتم فى تحقيق خطة كنتم تنتظرون لها نجاحا كبيرا ، فماذا كان أثر الفشل والاخفاق فى عزيمتكم ، وهل وصل بكم مرة إلى حد اليأس الذى يقعد عن معاودة السعى والعمل ؟

وهنا ضحك دولته ضحكة الذكى المتنبه الذى لا يخفى عليه خبث محدثه وقال :

" إنك تحاول أن تجرنى إلى الكلام عن نفسى . ولكن لا بأس وليكن لك ما تريد ، فلعل خبرتى وتجاربى ووسائلى تفيد الشبان الذين تنقل اليهم هذا الحديث .

" لقـد عرفت حلو الأيام ومرها ولقـد صادفتنى صعوبات كثيرة وصدمتنى صدمات هائلة ومع ذلك فها أنا ذا كما ترانى لم أغرق فى خضم الحياة الذى ابتلع كثيرين غيرى .

" إنى لم أعرف اليأس قط ولم يحطم الإخفاق إرادتى ولم يفل عزيمتى ، وكنت دائما وفى كل أحوالى أعتمد على نفسى وأومن بأن الشئ ما دام ممكنا فلا بد من الوصول اليه إن لم يكن من هذا الطريق أو ذاك فمن طريق غيرهما .

أى نعم ! لقد صدمت صدمات كفيلة بأن تنهى حياة رجل سياسى أو لا تدع له أملا فى العودة إلى مسرح السياسة ، ولقد ظن الناس عقب كل صدمة من هذه الصدمات أنى لن تقوم لى بعدها قائمة ، ولعلك تذكر الظروف التى خرجت فيها من الوفد المصرى ، ولعلك تذكر أيضا الظروف التى فرقت بين بعض الزعماء وبينى ، واختلاف وجهات النظر الذى أدى إلى استقالة وزارتى سنة ١٩٣٣ ، لقد كانت هذه كلها حالات موجبة لليأس ولكنى لم أيأس قط .

" كنت فى كل مرة أستعرض حالتى كما يستعرض التاجر دفاتره أو كما يفحص الميكانيكى الجهاز المعطل بين يديه ، فإذا وجدت خطأ فى الحساب عرفته وصححته وأقمت عملى على حساب جديد ، واذا وجدت قطعة فى الجهاز مكسورة استبدلت بها غيرها ، وإذا رأيت أن الجهاز كله غير صالح أتيت بجهاز جديد ، وبذلك أعاود السعى وأستأنف المسير فأصل وأنجح فى بلوغ ما أريد .

" يجب الصمود للشدائد والاعتماد على النفس والإيمان بأن صدق العزم وحسن الوسيلة كفيلان بالوصول إلى الغاية وهذه هى النصيحة التى أقدمها إلى شباب هذا الجيل " .

وهنا رأيت أنى اسرفت فى استغلال لطف الرجل بالإطالة فى هذا الحديث فوقفت عند هذا الحد وشكرت لدولته فضله وطول أناته وودعته على أن أعود اليه كلما فكرت فى أن أزجى إلى شبابنا حديثا قيما ممتعا مملوءا بالإرشادات القائمة على تجارب الأيام وخبرة الحياة " .

ح . ا .

— خطة العاقل فى رأسه ، وخطة الجاهل فى نفسه .

— الوقت عدو مجتهد ، لا يدافعه إلا مجتهد .

— الشباب أعراس الجمال ، والمشيب مآتمه .

— الخاصة أذوق لحكمة البيان ، والعامة أذوق لحكمة الالحان .

— العامة أذناب من يمسح رءوسهم .

— يهدم الصدر الضيق ما يبنى العقل الواسع .

شوقى